Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.26, Issue: 2019

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
العدد السادس والعشرون، 2019م.

دراسة فنية وتحليلية لرواية نسيم حجازي "الصخرة الأخيرة"

د. عذراء پروين
الأستاذة المشاركة بقسم اللغة العربية بجامعة بهاءالدين زكريا بملتان

Abstract

This article consists of technical and analytical review of the novel ‘Akhari Chattan’ (The Last Rock) by (a prominent novelist) Naseem Hijazi, of Urdu literature (published in 1946). Most of the historical incidents of novel are related to Chengiz Khan, Ala-ud-Din Khwarzem Shah, Jalal-ud-Din Khwarzem Shah, Shamsuddin Shams, Caliph Al-Nasir, Caliph Az-Zahir, Al-Mutasim Billah and Salahuddin Ayubi. Apart from historical characters, some of the creative characters are also included in the novel. On one hand, victories in the Middle East are justified; on the other hand, the silky flags started flapping from Spain’s borders to France. Aslo the flagship of Islamic victories began to rise in Indian fields. Just after six hundred years, a gale blew out these victories as they never appeared. The storm which started from the desert of Gobi under the leadership of Chengiz Khan brought a destructive message to the civilized and developed communities. Dialogues of the novel are great. Along with the historical events, the romantic events are also described. This

combined description of historical and romantic events provides interest to the reader. The narration and description of events and language of the novel are attractive.

Key words: Novel, Akhri Chattan, Naseem Hijazi

عرض الرواية:

تقع الرواية في خمس مئة واثنتي عشرة (512) صفحة وهي من منشورات جهانكير بكس، لاهور، باكستان. والرواية "الصخرة الأخيرة" تشتمل على أحداث من فترة تاريخية من أهم فترات الكفاح الإسلامي ضد (التتار) والصليبيين القادمين من المغرب وإيقاظ خلفاء بغداد قبل سقوطها. إن هذه الرواية تحتوي على حقبة من الزمن الطويلة التي تجمع بين طياتها انتصارات المسلمين وانحطاطهم وفتوحاتهم على (التتار) وانكسارهم.

قسم نسيم حجازي روايته إلى ثلاثة أجزاء: والجزء الأوّل يشتمل على ستة فصول وهي:

الفصل الأوّل بعنوان: "يوسف بن ظهير" والثاني بعنوان: "بغداد" والثالث بعنوان: "أصدقاء وأعداء طاهر الجدد" والرابع بعنوان:"صفية" والخامس بعنوان:"نقمة قاسم" والسادس بعنوان: "استعداد طاهر بن يوسف".

والجزء الثاني يشتمل على ثمانية فصول وهي:

والفصل الأوّل بعنوان: "رسول الخليفة" **والفصل** الثاني بعنوان: "انكشاف " **والفصل** الثالث بعنوان:"تيمور ملك " **والفصل** الرابع بعنوان:"ثريا " **والفصل** الخامس بعنوان: "بنت الجندي" **والفصل** السادس بعنوان: "جندي وتاجر" **والفصل** السابع بعنوان: "دعوة العمل" **والفصل** الثامن بعنوان:"الموأمرة".

والجزء الثالث يشتمل على عشرة فصول وهي:

الفصل الأول بعنوان: "النار والدم" **والفصل** الثاني بعنوان: "القضايا المهمة" **والفصل** الثالث بعنوان: "يد القدرة" **والفصل** الرابع بعنوان: "أسد

خوارزم" **والفصل** الخامس بعنوان: "البلاد الأجنبية" **والفصل** السادس بعنوان: "خلاف العهد" **والفصل** السابع بعنوان: "محاولة أخرى" **والفصل** الثامن بعنوان: "الهزيمة الأخيرة" **والفصل** التاسع بعنوان: "الرسالة الأخيرة" **والفصل** العاشر بعنوان: "مصير".

الجزء الأوّل: يدور حول شخصية يوسف بن ظهير الذي جاهد مع صلاح الدين الأيوبي وأبلى نفسه بلاءً حسناً حتى استشهد في سبيل الله ويبين فيها الأحوال الإبتدائية لشخصية بطل الرواية طاهر.

الجزء الثاني: يدور حول أحوال بطل الرواية في بغداد ثم سفره إلى بلاد (التتار) كمندوب خليفة المسلمين وبيان المؤامرة ضده واعتقاله.

الجزء الثالث: يدور حول بطولات طاهر في قتاله ضدّ (التتار) مع جلال الدين بن خوارزم شاه بعد التسريح من السجن، ثم وصوله إلى بغداد مرة ثانية ومحاولته في إيقاظ المسلمين من النوم السبات وجهاده ضد (التتار).[1]

وفي ذلك نجد في التاريخ:

"استطاع (جنكيز خان) أن يبنى إمبراطورية مترامية الأطراف، امتد حدودها من بحر قزوين إلى شواطيء الصين، ومنذ بداية القرن الثالث عشر كانت الجموع (التترية) قد خرجت من موطنها في وسط آسيا وأخذت تجتاح البلاد القريبة منها، وبينما كان معظم المقاتلين في هذه الجيوش الرهيبة من الترك، وقادتهم من (التتر) وعبر (التتار) نهر جيحون بقيادة ملكهم (جنكيز خان)".[2]

وسبب عبورهم نهر جيحون هو أن (جنكيز خان) بعث تجاراً له و معهم أموال كثيرة إلى بلاد خوارزم شاه يبيعون له ثياباً للكسوة، فكتب نائبها إلى خوارزم شاه يذكر له ما معهم من كثرة الأموال، فأرسل إليه بأن يقتلهم ويأخذ معهم، ففعل ذلك، فلما بلغ (جنكيز خان) خبرهم أرسل يتهدد خوارزم شاه بالمسير إليهم، فسار إليهم وهم في شغل شاغل بقتال (كشيلي خان)، فنهب

خوارزم شاه أموالهم وسبي ذراريهم وأطفالهم، فاقبلوا إليه محرومين، فاقتتلوا معه أربعة أيام قتالاً لم يسمع بمثله، أولئك يقاتلون عن حريمهم والمسلمون عن أنفسهم".[3] وكان (جنكيز خان) قد أرسل هؤلاء التجار ظاهراً ولكن للتجسس وتقصي الحقائق باطنا. هذا كان أول صدام بين المسلمين و(التتار) "قتل من الفريقين خلق كثير" وبعد هذا القتال "تحاجز الفريقان وولى كل منهما إلى بلاده، ولجأ خوارزم شاه وأصحابه إلى بخارا وسمرقند فحصنها و بالغ في كثرة من ترك من المقاتلة، ورجع إلى بلاده ليجهز الجيوش الكثيرة فقصدت (التتار) بخارا وبها عشرون ألف مقاتل، فحاصرها (جنكيزخان) ثلاثة أيام، امتنعت فطلب منه أهلها الأمان فأمنهم ودخلها، فأحسن السيرة فيهم مكراً وخديعة وامتنعت عليه القلعة فحاصرها واستعمل أهل البلد في طم الخندق، وكانت (التتار) يأتون بالمنابر والربعات فيطرحونها في الخندق يتممونه بها، ففتحوها قسرا في عشرة أيام، فقتل من كان بها ثم عاد إلى البلد فاصطفى أموال تجارها وأحلها لجنده، فقتلوا بحضرة أهليهن، فمن الناس من قاتل دون جريمة حتى قتل، ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب، كثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال، ثم ألقت (التتار) النار في دور بغداد، ومدارسها ومساجدها، فاحترقت حتى صارت بلاد خاوية على عروشها، ثم كروا راجعين عنها قاصدين سمرقند و بخارا.

عن مظالم (التتار) يكتب نسيم حجازى فصلا" بعنوان "النار والدم".[4]

واشتد فسادهم من بلاد أقصى الصين إلى أن وصلوا بلاد العراق وما حولها، حتى انتهوا إلى أربل وأعمالها، فملكوها في سنة واحدة سائر الممالك إلا العراق والجزيرة والشام ومصر. وفي هذه السنة قضى على (التتار) وأنهى قوة خوارزم شاه وأرسل (جنكيز خان) خلفه سرية وكانوا عشرين ألفاً وقال: "اطلبوه فأدركوه ولو تعلق بالسماء". كان خوارزم شاه يفر و(التتار) خلفه حتى توفي نائباً، اختلف في مكان وفاته ويقول ابن كثير في هذا الصدد: "حتى ركب في بحر طبرستان وسار إلى قلعة ما كان من أمره، بل فلا يدري أين ذهب وإلى أي مفر هارب".[5]

حاولت السرية كثيراً في البحث عنه ولكنها لم تتمكن على ذلك ولكن استطاعت أن تملك خزائنه و بلاده.

وبعد خلفية تاريخية يذكر نسيم حجازي قصة طاهر، وهذا البطل محزن ومؤسف جداً، وهي قصة شاب يخرج وفي قلبه هموم لا نهاية لها، ويرجع وهو قانط لا ينظر إلا الهلاك والدمار في الذين لم يبالوا بما قاله هو، وأيضاً من الواجب أن أشير إلى أن هذه القصة ليست قصة الشاب الذي خاب وخسر في أهدافه؛ لأن أباه شارك في جهاد صلاح الدين، وكان سداً أخيراً أمام السيل الصليبي، إذ هو يشارك في معارك جلال الدين الذي كان سداً أخيراً للسيل (التتري)، ولكن للأسف لم يثبت هذا السد كثيرا فأغرق هذا السيل العارم المدن الإسلامية وقراها.

وإن طاهر يشارك مع جلال الدين في معارك عديدة مع أصدقائه (عبدالملك وعبدالعزيز) ضد (التتار) ولكن لم يفز.

وفي قصر رئيس الوزراء (افتخار الدين) يلتقي طاهر ابنة الأخ (صفية) لرئيس الوزراء التي تحبه حباً جماً وكانت خطيبة قاسم (ابن رئيس الوزراء) ولكنها تنفره لخصائله السيأت. وفي مطاف الرواية تستشهد صفية في معركة ضد (التتار) التي جاءت إلى طاهر لإرسال الخطاب من عمه افتخار الدين (رئيس الوزراء) من بغداد، ويتزوج طاهر مع ثريا التي تضع الهدف النبيل في قلبها للإسلام والمسلمين وثارت النسآء على إخراج أبيهن وإخواتهن وأزواجهن للجهاد وإعلاء كلمة الحق ولا يمنعن طرقهم في حبّهن. وبعد سقوط بغداد يعيش طاهر حياته الباقي في الهند ثم في المدينة المنورة ويقضي حياته لدعوة الإسلام مع زوجته (ثريا) وابنه (عبدالعزيز).

وفي نهاية الرواية يذكر نسيم حجازي مصير الخليفة العباسي المستعصم ومظالم (التتار) على أهل بغداد.

شخصيات الرواية:

وفي الرواية قسمان من الشخصيات: شخصيات رئيسية، وشخصيات

ثانوية؛ فالشخصيات الرئيسية هي التي تحرك الرواية، وبعضها حقيقية وبعضها خيالية.

1- طاهر : المجاهد الإسلامي
2- ثريا وصفية : زوجة طاهر وابنة الأخ لرئيس الوزراء.
3- جلال الدين خوارزم شاه: ملك دولة خوارزم
4- مهلب بن داود : وزير الخارجية
5- افتخار الدين : رئيس الوزراء
6- قاسم : ابن رئيس الوزراء
7- المستنصر : الخليفة العباسي

الشخصيات الثانوية:

هذه شخصيات ثانوية في الرواية وهي مثلاً: أحمد بن حسن، ويوسف بن ظهير وسعيدة وزاهدة وزيد (خادم طاهر) وقاضي فخر الدين و شيخ عبدالرحمن و اسماعيل أخو ثريا وقشمور وعلاؤ الدين و (جنكيز خان) وغيرها.

وكل هذه الشخصيات لها أدوار ثانوية في الرواية، ولا أبعادها إلا القليلة، مثلاً يبين من صفات (جنكيز خان) أنه كان ظالماً وحشياً، وعلاؤ الدين أنه انهزامي الطبيعة و متوهم الفطرة وجبان الخصلة. والشيخ عبدالرحمن فهو يظهر في زي تاجر لا يعرف شيئاً إلا عن الدنيا، والشيخ أحمد بن حسن فتتجلى شخصيته في صورة عالم مجاهد و مربي ومشفق. وزاهدة فيأتي ذكرها على صفحات الرواية وهي مجاهدة صابرة و محبة لسمو الإسلام والمسلمين.

أحداث الرواية و وحدة الزمان والمكان:

(أ) أحداث الرواية:

يبدأ نسيم حجازي روايته عن فذلكة تاريخية عن نهضة العرب المسلمين ونهضة (التتر) الذين ظهروا في القرن السادس الهجري، إذ كانت الاولى نهضة إنسانية، وثانية وحشية؛ لأن (التتار) لم يسيطروا على بلاد المسلمين فحسب؛ بل

ارتكبوا فيها الفظائع ما لا يرضى بها أي دين. وأحداث الرواية من الناحية التاريخية والغرامية تجري معاً ولكن عنصر التاريخ غالب في الرواية.

ثم يبدأ نسيم حجازي روايته بذكر الشيخ أحمد بن حسن الذي كان يدرس في إحدى مساجد المدينة المنورة ويودع طاهر ابن صديقه يوسف بن ظهير إلى بغداد، ويزوّده بالنصائح كما يعطيه رسالة إلى القاضي فخر الدين والمال الكثير والجواهر الثمينة والسيف أبيه من صلاح الدين الأيوبي التي كانت أمانة عنده، ويرسل طاهر إلى بغداد ليخدم الإسلام والمسلمين بعد إكماله الدراسة و تفوقه في الفروسية. ودع الشيخ الشاب وهو يقول له قبل الوداع: إنني سمعت أن ظل أشجار بغداد بارد فلا تنم تحته" ثم يبدأ ببيان بداية الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامي ويذكر مقاومة عماد الدين (زنكي) و صلاح الدين الأيوبي. جاهد صلاح الدين ضد الصليبيين إلى أن كسر شوكتهم، وفي الجانب الثاني لم تساعده الخلافة العباسية مباشرة، ولكن بدأ الناس يجتمعون تحت رأيته لشهرة بطولاته ومعاركه، كما تجمعت (أوروبا) بكاملها ضده.

وكان أحمد بن حسن من الشباب الذين خرجوا من المدينة المنورة لرفع راية الإسلام كجندي، فتأثر صلاح مرة من جرأة أحمد بن حسن و يوسف بن ظهير، وأمر أحمد بن حسن على اثنتي عشرة كتيبة وأمر يوسف بن ظهير على خمسة، ولم تمض إلا أيام وكان الجنود يعرفونهما؛ إذ كان أحمد عضواً في مجلس العلماء، ويوسف أمير الفدائيين في الجيش الأيوبي. وعاهدا ربهما أنهما لا يرجعان إلى البيت إلا بعد فتح بيت يروشلم، رغم أن زوجة يوسف كانت مريضة. وكان يوسف قد جعل هدف حياته أن يكون هو الذي ينصب راية الفتح الإسلامي على يروشلم، فلم تمض إلا أيام إذ دارت معركة بين المسلمين والعدو. وفتح المسلمن مدينة يروشلم، وكان يوسف أول من ارتقى على جدار الحصن. وقاتل مع الحراس وكسر الصليب المنصوب على البرج الأعلى منه، ولكنه سقط مغشياً في الأخير، وكان صلاح الدين يشاهد كل بطولاته فقال في قلبه أنني سأمنحه

سيفي، وجوادي، بل أوليه على المدينة، ولكن لم يمهله الموت كثيراً إلا أن لقي ربه بعد أن أثبت ما كان يحلم به من نصب الراية بيده، وكانت زوجته قد توفيت قبله، فلقي الحبيبان في جنات النعيم. وبعد الفتح أرسل صلاح الدين أحمد بن حسن إلى بيت يوسف بن ظهير وزوده بجواهر ثمينة، وبسيفه وبجواده مع خمسمائة دينار لابن يوسف بن ظهير. ولما بلغ أحمد فعرف أن زوجة يوسف كانت قد توفيت قبل فتح يروشلم بأربعة أيام[6] فأخذ معه ابنه "طاهر" ورباه تربية حسنة، واعتنى كثيراً بتربيته حتى حصل طاهر مكانة مرموقة ورفيعة في ميدان العلم والفروسية. وكان الخطر (التتري) في تلك الآونة يتدفق على بلاد المسلمين فأرسله الشيخ أحمد إلى بغداد ليعمل في صالح المسلمين و الاسلام.

ونجد هنا نسيم حجازي يبين دور أحد بنات القصر وهي ابنة أخ رئيس الوزراء، وخطيبة ابنه قاسم التي تخبر طاهر مرارا عن المؤمرات التي تنسج لها في القصر، ولما سمعت عن هذه المؤامرة الجديدة وأرادت أن تبلغ كل هذه المعلومات إلى طاهر كما كانت تفعل يومياً، فكتبت إلى طاهر أن أفضل من أصدقائك قد عاهد أن يساعد أعداءك في القبض عليك، وهناك أشياء أخرى أريد أن أخبرك شفهياً، يخبرك حامل الرسالة عن المكان الذي تلقاني فيه بغير أي خطر. واتفق أن اطلع قاسم على هذه الرسالة، فكيد لطاهر، وقبض عليه لما جاء لملاقاة صفية، واعتقله.

ويلقى طاهر في السجن مع وحيد الدين وزير الخارجية سابقاً عن طريق الجحر الذي كانوا قد جعلوه من تحت الغرفتين، وعلم طاهر منه أن وراء كل هذه المؤمرات لم يكن وحيد الدين بل كان هو مهلب بن داؤد وزير الخارجية حالياً. بقى طاهر في السجن مدة، وبعد مرور عشرة أشهر جمع الأمراء في القصر وكانت الأجواء في بغداد قد بدأت تتغير، وكان معظم الناس يرتفعون أصواتهم في حق طاهر وأصدقائه فاتفق الأمراء على تسريح طاهر. يستغل قاسم فرصة من هذه القضية لحبه بصفية التي كانت تحب طاهر، فقال لها لو أنني أسرح عنه فهل

ترضى أن تكون زوجتي، فرضيت صفية آخر الأمر على ذلك. وفي الجانب الثاني حاول مهلب بن داؤد أن يقتل طاهر بالسم ولكن قدر الله أن أكل طعامه وحيد الدين، ومات في مكانه، ونجى آخر الأمر وكان الحراس قد رموه في البحر مكبلاً في الحجر، ولكنه استطاع على السباحة.

ووافق أنه لما خرج من البحر فيلقي صفية التي كانت قد جاءت إلى شاطئ البحر في الليل فساعدته على الخروج من البحر أخبرها عن قتل وحيد الدين وزير الخارجية سابقاً لتخبر عمه عن ذلك، وليكشف عن المجرم الحقيقي، وتكلم مع صفية قليلاً وأخبره أنه قد وعد مع فتاة تسكن في بلخ لذلك لا يستطيع أن يعد معها، فاعطته خاتمها هدية لها. بعد ذلك يصل طاهر إلى أصدقائه، وفي الصباح أخبرت صفية عمه عن المؤامرة وقتل وحيد الدين، ولما سمعت قاسم ومهلب يتكلمان في البيت، وكانا يتكلمان ليسمعا صفية أنه تم التسريح عن طاهر على شفاعة قاسم.

وكان رئيس الوزراء قد دعا ابنة أخيه صفية وتخلى معها وقال لها أنني كنت قد أرضيت الخليفة على أن يكتب إلى جلال الدين خطاباً ليدعوه إلى بغداد ويساعده، ولكن الآن جاء مهلب بن داؤد كمندوب (التتار) وخوفه عن (التتار) وعاقبة السوء، وطلب منه المساعدة على جلال الدين وتسليمه إلى (التتار) وبذلك يمكن لهم النجاة من (التتار)، واليوم ينعقد الاجتماع في قصر الخليفة، فلو أنني رجعت إلى الليل فجيد وإلا فعليك أن توصل الرسالة إلى سعيد وأصدقاء طاهر وهم يعتمدون عليك اكثر مني، وبدأ الاجتماع في قصر الخليفة حول هذا الأمر فأفتى بعض المفتين في جواز ذلك، ولكن رئيس الوزراء افتخار الدين خالف ذلك، ولما رجع فحمل عليه مهلب وأصدقائه حتى خرّ مصاباً بالجروح الأليمة، ولما أوصله حراسه إلى مكانه فكان قد اقترب من موته، فقال لصفية ابنة أخيه أن الخليفة كان قد أرسل ثلاثين ألف جندياً قبل وصولي إلى القصر للقبض على جلال الدين، فعليك إلى أن تنبههم على ذلك ففاضت روحه

بعد قليل، وخرجت صفية من البيت بعد موته مباشرة وركبت على الفرس ومعها ستة رجال، وفي الجانب الثاني كان طاهر قد خرج من عند جلال الدين ليصل بغداد لرأى في الطريق أن صفية وأصحابها كانوا قد حوصروا، فساعدهم طاهر وأصدقاؤه، ولكن كانت صفية أصيبت بالجروح الأليمة، ولقيت ربها الأعلى بعد ما بلغت رسالة عمها.

وغير طاهر وأصحابه قصد بغداد و رجعوا جلال الدين وكان معه ألفين وخمسمائة جنديا فقط، وفي الجانب الثاني كان مع قائد جيش بغداد ثلاثون ألفاً، حاول جلال الدين كثيراً أن لا تكون الحرب بين المسلمين، ولكن قشمور قائد جيش بغداد لم يرض بذلك فدارت معركة بين الجيشين فانتصر جلال الدين على قشمور وما أن سمع المسلمون عن انتصاراته إلا واجتمعوا تحت لوائه حتى بلغ عدد جنوده إلى عشرين ألفاً، وخاصة بعد وفاة الخليفة الناصر و تولية ابنه ظاهر، ارسل جلال الدين طاهر وعبدالملك إلى الخليفة ليتحدثا معه فذهبا إليه و ارضيا الخليفة حتى فوض الخليفة ترتيب الجيش وإعدادها إلى عبدالملك، ولما رأى مهلب نشاطات الخليفة وطاهر فغاب عن بغداد، وكانت الأخبار تأتي أن السلطان جلال الدين انتصر على (التتار) في الجبهة الفلانية والفلانية، حتى وصل إلى (الري)، ولكن تغير الأحوال لما جاء سفير (التتار) الجديد في بغداد، ودبر للمسلمين حتى استطاع من إدخال الرعب في قلب الخليفة، وفخذل الخليفة جلال الدين لما سمع عن كثرة جيش (التتار) الذين عبروا نهر جيحون، ولما رأى جلال الدين هذا فبدأ جلال الدين يدمن الخمر و ترك مواجهة (التتار) وحاول الكثير لإقناعه، ولكنه لم يرض أن يفعل طول حياته بأن يجمع بعض الفدائيين ويضحيهم، فركب على فرسه وذهب إلى منزل غير معلوم، وكان طاهر قد ذهب إلى الهند سفيراً لجلال الدين إلى سلطان التمش ولما رجع فحزن على ما رآه في بغداد وفي جيش السلطان جلال الدين، ولكنه لم يترك سبيل الجهاد بل جاهد إلى ما استطاع وفي الأخير ينبه أهل بغداد، وكان مهلب قد احتل منصب رئيس

الوزراء في بغداد، فقبل مغادرة بغداد يذهب طاهر إلى مهلب وقائد الجيش ويذيقهم أشد العذاب بحيث قتل قشمور و أغرق مهلب في النهر مشدداً بالحجر، ويخرج معه أصحابه صوب الهند، ويلتحق بجيشه حتى وصل إلى المنصب الكبير، وبعد التقاعد اختار سبيل دعوة الكفار إلى الإسلام، ولما سمع عن تولية مستعصم فرأ خطر انهدار بغداد، وفي السنة الثالثة من خلافته حملت (التتار) على بغداد، وكان وزير الخليفة ابن علقمي أشار عليه انه لا حاجة إلى ثلاثمائة جندي في هذا المركز الروحي والعلمي، فعزل جميع الجنود إلا قليلا منهم، فغار (هولاكو خان) على بغداد وكان في ذلك الوقت ينظر الخليفة رقص النساء وبيده الخمر فلما أخبره القاصد عن إغارة (التتار) فسقط القدح من يده، فذهب إلى (هولاكو خان) بالهدايا، لم يرجع بل جعلوه في ثوب و دسوه تحت اقدام الفيل، واستطاع أربعمائة ألف من عشرين على النجاة بأنفسهم من بغداد، ولما رأى (هولاكو خان) أن بعض الناس لا يزالون مختبئين تحت الأرض فخرق ضفة نهر دجلة وأغرق بغداد ولما رجع (هولاكو خان) عن بغداد فلم يكن هناك سوى الكلاب والطيور، وبغداد كانت بقيت قصة الماضي وكان أهل بغداد قد حصدوا ثمرة ما زرعوه.

(ب) وحدة الزمان والمكان في الرواية:

نرى أن حجازي احتفظ في روايته ترتيب الخلفاء ببغداد، وبدأت الرواية من عهد ناصر الدين، ثم تولى الخلافة بعد وفاته ظاهر و مستنصر، وكان آخر خليفة بغداد هو مستعصم الذي قتل في عهده (هولاكو خان) بمؤامرة وزيره الشيعي ابن العلقمي. ذكر الكاتب في آخر صفحات من روايته أحوال تدمير بغداد وهو يقول: "وكانت السنة الثالثة من خلافة مستعصم، و (التتار) يستعدون لقتال بغداد والخليفة مشغول بالملاهي و مغتر بوعود وزيره ابن علقمي: "الذي تعصب ضد المسلمين حتى استطاع إنهاء الخلافة العباسية؛ بحيث كان يريد إقامة الخلافة العلوية الشيعة ولكن قدر الله ان لم ينجح فيه".[7]

ووضح الروائي أن (التتار) لم يقتلوا الخليفة بل دسوا تحت أقدام الفيل، وهذا نجد بيان الكاتب موافقاً للبيان المؤرخ الذي يقول: "إن (التتار) ضربوا مستعصم بالسياط ثم دسوا جثته تحت أقدام الفيل".[8] لا نجد في هذا الموضع فرقاً بين الكاتب والمؤرخ.

وأرى من المناسب أن أذكر الأحداث التارخية التي لم يستطع الروائي أن يذكرها كما هي، ومنها أن حجازي ذكر أن (طالقان) سقطت في عهد ناصر الدين، وعلاء الدين، وهو يقول في صدد بيانه لسقوط (طالقان) " ولما نظر جلال الدين إلى قوته الذاتية، فدعا (جنكيز خان) ليبارز بنفسه".[9] إذا التاريخ لا يوافق ذلك.

والأحداث المهمة فى الرواية هي كالتالي: غزوات صلاح الدين الأيوبي، المؤامرات ضد جلال الدين في بغداد، محاولات المسلمين المتحمسين لنصرة جنود المسلمين التي سدت (التتري) وراء الدول الإسلامية.

ومن الجديد بالذكر يذكر الروائي بعض التواريخ والسنون وهي صحيحة حسب كتب التاريخ مثلاً: هزيمة القوط (بازنطيني) بأيدي الأتراك السلاجقة على مكان "ملازجرو" في سنة 463هـ. ص: 17.

- وجاء سيل النصارى على عالم الإسلام في سنة 491هـ. ص: 18.
- وبداية الحروب الصليبية في السنون الأولى من القرن السابع من الهجرية، ص: 34.
- ولاية صلاح الدين الأيوبي في مصر في سنة 584هـ. ص:19.

يذكر الروائي جولات بطل الرواية إلى مختلف الأماكن مثلاً يخرج طاهر من مدينة المنورة إلى بغداد، ثم إلى قراقرم والهند و سمرقند وبلخ و بخارا ومرو وغزني وقوقند وغيرها إلى أماكن عديدة.

الحوار والأسلوب فى الرواية:

(أ) الحوار في الرواية:

هو عنصر مهم في الرواية "وذلك لأنه عنصر بارز للعملية القصصية، وجانب حيوي من بناء الفني للقصة، والحوار أسلوب مهم من أساليب بناء الشخصية في القصة، بحيث نستطيع أن نشهد هذه الشخصية، وهي تتحدث في حوار مع الآخرين معبرة عن نفسها وعن أفكارها".(10)

ومن وظائف الحوار: المساعدة في رسم الشخصيات، وتطوير الأحداث، وتعميق الأحداث في النفوس، وتصوير مواقف معينة، والتخفيف من رتابة السرد، وكشف مغزى القصة، والإضفاء على القصة نوعاً من الواقعية (31)، وسنشاهد أمثلة ذلك كالآتي، فنرى من خلال الرواية أن الكاتب حاول كثيراً في أن يثبت أشخاص روايته أشخاصاً حقيقيين، ويجري على لسانها ما يريده الروائي، علماً بأن الروائي أعطى بهذه الطريقة حيوية للرواية، وأخبر قراء روايته عن ذلك العصر المزدهر من التاريخ الإسلامي الذي شهد هزيمة المسلمين وانتصارهم، وأهم ما يتميز به الروائي هو استخدامه الحوار في الرواية، وهو يراعي جميع النواحي الفنية والفكرية في هذا الاستخدام.

ولو نظرنا إلى الحوار في رواية حجازي فنرى أنه ما من صفة من صفات الحوار الحسنة إلا و هي موجودة فيها. وكثيراً ما يعتمد على الجمل القصيرة خلال الحوار، مع مراعاة أن لا يأتي أي خلل في الكلام. فمثلاً نرى في الحوار بين طاهر وزيد عن مناظرة: "سأل طاهر: هل رجعت؟.

:نعم رجعت.

:قد تأخرت كثيرا، وماذا تعلمت هناك؟

:السباب قال زيد ذلك بلهجة بريئة.

:صوتك يرى صوت المهموم، فهل أنت بخير؟

:أنا بخير.

قال طاهر: يرى من صوتك كأن في أنفك ألم.

قال زيد قائماً من سريره: أن الألم في عيني أكثر من أنفي".(11)

نرى أن حجازي لم يسرف في الألفاظ خلال الحوار بل اقتصر على العبارات والجمل القصيرة حتى يتبين ما يريد.

والرواية مليئة بمثل هذه الحوارات. ومن مميزات الحوار أن يكون في الحوار مراعاة لمكانة المتحاورين، ولعل أحسن مثال على ذلك هو حوار طاهر مع رئيس الوزراء:

قال طاهر: لا أدعي على عقلي و فراستي ولكنك ستجدني معتمداً.

قال رئيس الوزراء: سأتكلم غداً مع وزير الخارجية.

يكتب الروائي الحوار عن الخطابات و صور أحاسيس السامعين، وينقل بعض الأحيان أقوالهم وكلامهم، ومن أمثاله:

"عرف أحد الشباب طاهر واقفا على المنبر، فقام طاهر للخطاب وهذا كان أول مرة في حياته أنه يخاطب مثل هذا المجمع الكبير فعلى كل حال بدأ خطبته متقطع الصوت بتلاوة القرآن، وكان رجال بغداد قد سمعوا المناظرين والخطباء الكبار وخطاباتهم الساحرة، فجلسوا قليلا وشرعوا يحسون بالسأم ويتكلمون فيما بينهم، وكان في هذا الاجتماع من كان يرى قيام أجنبي على هذا المنبر إهانة لنفسه، وكان من بينهم من يتمنى لوكان اليوم مناظرة.

قام أحد العلماء المعروفين، وقال ببساطة: عليك أن تجلس وتترك ليتكلم من جاء من تركستان.

فضحك الناس على هذا الاستهزاء، ولكن هذا الاستهزاء أثر في طاهر أثراً غير متوقعاً فبدأ خطابه بعد ما وقف لحظة.(32)

والحوار الذي يجري بين صفية و قاسم هو ذات أهمية مثلاً:

كانت صفية تريد النزول حتى سمعت قرع النعال من خلفها فاستدارت إلى الخلف وولت وجهها، هذا كان قاسم.

قال لصفية هيا ننزل، وإلا فتبردي.

لم تجب صفية وتقدمت نحو الإمام وبدأت تنظر إلى البحر.

صفية ! هدديني كما تشائين إنني لا أطيق أن أتحمل سكوتك هذا، لو أعلم أنني أستطيع أن أرجع إليك فرحتك بتغير موجات هذا البحر والله إنني لمستعد لذلك!

صاحت صفية: إنك لكاذب، وإنك لماكر، بالله اذهب عني، ولا تؤذيني.

"ما جئت إلا لأسمع ذلك" حاول قاسم التبسم كي يستر خجله.

قالت صفية بشدة: إنك لظالم، وإنك لدنيء وإنك لخائن القوم اذهب عني، وإلا فألقي نفسي من هذا السطح".[12]

وهناك حوار يأتي لتطوير الحدث نحو الأمام وهذا ما نراه في الحوار بين صفية وسكينة خلال مقابلة طاهر مع قاسم لما كانتا واقفتين على السطح تنظران هذا اللعب.

كانت صفية تقول لسكينة: ألم أكن أقول أن حدة لسان قاسم أشد من سيفه.

قالت سكينة: لعلهما يتكلمان كلام الأصدقاء.

قالت صفية: لوكان الكلام كهذا فلما توقفت سلسلة الكلام على جوابه، يكون قد خرج من فم قاسم كلام شديد وأستاذه اليوناني (لوكس، Luxe) أيده وأما الآن فهما يجلسان مقنعين رؤوسهما.

قالت سكينة: ما الدليل عندك أن قاسم أغلظ له في القول، وإنك لا تسمعين كلامه من هذا البعد وسيتم القضاء عن قريب، أكان لسانه شديداً أم سيفه، قاسم سيضربه حتى ينسى لمس السيف.

قالت صفية: لو انهزم قاسم فماذا....

قالت سكينة: صفية أدعي الله دعاء صادقاً.

لماذا ترحمين على هذا الأجنبي؟.

أجابت صفية صائحة: إنني لا أشفق على أجنبي بل مع ابن المجاهد

الذي نصب راية فتح المسلمين على يروشلم، ونال على سيف صلاح الدين، ولا أتمنى أن لا يثبت ابنه أهلا له في هذا الجمع، وقاسم ماذا يفعل بهذا السيف؟

أليس هو جندي؟

جندي! اسألي ابنة قائد الجيش وإن تردين مزيداً فاسألي زوجة عبدالملك....[13]

والحوار الذى قال (جنكيز خان) عن جلال الدين خوارزم شاه، ذات أهمية، مثلاً لما حوصر جلال الدين من جميع الجوانب وكان خلفه العدو وأمامه النهر، فأهبط جواده إلى نهر السند من صخرة تمتد إلى ثلاثين ذراعاً، ورأى (جنكيز خان) ذلك المنظر فقال:

"سعيد ذلك الأب الذي ولده جلال الدين.

ومباركة تلك الأمهات اللاتي يرضعن مثل هذه الأسود".[14]

(ب) الأسلوب في الرواية:

إن أسلوب نسيم حجازي يعتمد على السهولة ولا تجد فيه تكلفا ولا تصنعاً ولا جمعاً للألفاظ الغريبة وبعيدة الفهم، وليس معنى ذلك أنه لا يكون في كلامه التشبيهات ولا الاستعارات، بل نرى أن عباراته تظهر في لباس مزينة تعجب القاريء، وهو يمشي مع أحاسيس الروائي ولا يقف عند أي مكان حتى يمعن النظر في التشبيهات. وكل تلك المعايير التي هي حاجة الكاتب الروائي في الروايات فهي موجودة لدي هذا الكاتب البارع. وهو لا يكثر الأمثال والأقوال الحكيمة، كما لا يكثر من الكلام الفلسفي والكلام المعقد.

الاستشهاد بالقرآن والحديث:

يستشهد الروائي بالآيات القرآنية في الرواية مثلاً:

﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾[15] ص: 207.

﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾[16] ص:55.

أما الحديث النبوي الشريف فهو:

[لَايُلْدَغُ المؤْمِنَ مِنْ جُحرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنَ] [17] ص: 115.

الاستشهاد بضرب الأمثال:

يستخدم الروائي بضرب الأمثال في الرواية مثلاً:

"إن الحديد بالحديد يفلح"[18] ص: 9.

"الاحسان يقطع اللسان"[19] ص: 258.

استخدام صيغ التعجب والاستفهام:

يستعمل الروائي مثل هذه الصيغ في الرواية، على صفحة: 339. "ولكن فكري ذلك جيداً، إنك تحب شخصيته، ولا يسهل عليك التضحية لأهدافه، لأن فى ذلك يجب عليك أن تضحي له حبك له، فهل أنت مستعدة لذلك ! تكلمي لماذا سكت؟ جئتك لأمتحنك اليوم، اسمعي و وعي! إنه قد تم الحكم له بالقتل ولكن وعدك الواحد ينجيه. سألت صفية: على ماذا تريد أن تأخذ العهد مني؟!

أنك ستتزوج معي؟

استخدام صيغ الحلف:

يستخدم الروائي صيغ الحلف في الرواية مثلاً:

"والله إنني لمستعد لذلك".ص: 336.

"والله اذهب عني".ص: 336.

"والله ما خدعتني حسّي الشامة" ص: 345.

استخدام التشبيه والاستعارة والكناية:

والرواية مليئة بهذه الامثلة: وترجمتها بالعربية على نحو التالي.

فهي أمثلة التشبيه: "إن أخي جالس مثل الأسد" ص: 83.

"هاجم (التتار) على الدول الجارية مثل الكواسر الجوعان" ص: 12.

"حدة سيفه كسرعة البرق انقطعت جناحه" ص: 233.

أما الأمثلة الإستعارة فهي:

"ما كانت هي خادمة بل كانت ملكة". ص: 102.

"مباركة تلك الأمهات اللاتي يرضعن مثل هذه الأسود" ص: 400.

"أن الله قد أرسل ملكين من السماء لهدايته" ص: 212.

أما الأمثلة الكناية فهي: "وهو يُلعبه كالطفل" ص: 85.

"ولو أن القوم يموت فماء حياته لديكن، ولوينام القوم كان باستطاعتكن إيقاظه، ص: 242.

أسلوب ذكر شخصية الخادم والخادمة:

يذكر الروائي شخصية الخادم (زيد) مع بطل الرواية طاهر الذي يصاحب معه إلى بغداد و خادمة صفية التي تحمل المكتوب من صفية إلى طاهر فيه تخبرها عن أحوال القصر، والدسائس عليه.[20]

ذكر ملامح الشخصيات و وصف حسن النسآء:

يذكر الروائي نسيم حجازي عن ملامح الوجه والجسد للشخصيات في الرواية ويذكر عن حسن وجمال صفية وثريا وبطل الرواية طاهر.[21]

أسلوب كتابة المكتوب في الرواية:

يختار الروائي أسلوب كتابة المكتوبات بين الشخصيات مثلاً:

- المكتوب من يوسف إلى زوجته (زاهدة) ص: 25.
- المكتوب من زاهدة إلى زوجة (يوسف) ص: 27.
- المكتوب من خليفة المسلمين ابو العباس احمد الناصر الدين الله إلى (جنكيز خان).ص: 159.
- المكتوب من صفية إلى طاهر، ص: 298.
- المكتوب من سلطان جلال الدين إلى (جنكيز خان)، ص: 388.

وهذه رسالة ذات أهمية لأن سلطان جلال الدين دعا (جنكيز خان) للمبارزة في الحرب في افغانستان.

- المكتوب من تيمور الملك صاحب قوقند إلى طاهر، ص: 422.

- المكتوب من طاهر إلى سلطان جلال الدين، ص: 447.

وهناك مكتوبات كثيرة في الرواية غيرها.

وصف مشاعر الحب و الغرام في الرواية:

ومن أحسن مشاعر الحب في الرواية لطاهر بعد ما تقوم صفية بين يديها وهو قد وعد مع ثريا التي تنتظره في بلخ، يصور حجازي ذلك الموقف النفسي لما يرى طاهر صفية بعد النجاة من النهر:

"كان طاهر يحس بأن قوة جميع عناصر الدنيا قد اجتمعت في وجود هذه الفتاة، فنظر أول مرة إلى هذا الوجه الحسين الذي كان ينظر فيه جماً من أنوار البرق، فلم يستطع طاهر أن يضبط نفسه وبدأ يقول: "صفية لو كنت أعرف قبل ذلك ولكنك لست بمجرمة، إنني أنا المجرم الذي لم يفهم بأنك تراني قابلة لهذا...."."[22]

وصف المناظر الطبيعة في الرواية:

يصف الروائي نسيم حجازي المناظر الجميلة الطبيعة في الرواية مثلاً:

"أخذت صفية بعض الأزهار و وصلت إلى مجموعة الأشجار، وكانت قطرات الطل تنزل من بين أغصانها، ولكن صفية لم تحس بذلك، وهذا هو المكان الذي كانت صفية التقت فيه أول مرة مع طاهر، ومنذ أن ذهب طاهر سفيراً إلى (جنكيز خان) كانت هذه القطعة من البستان مركز التوجه للصفية، وكانت تحب هذه الأشجار والأزهار، وتراها مختلفة من غيرها.

وصلت صفية إلى هذا المكان بعد ما كانت تحمل حملاً شديداً على قلبها، وكانت أول شموع الشمس تنزل واحدة والأخرى من بين أوراق الأشجار".[23]

وصف المعارك في الرواية:

وهكذا الروائي يصف المعارك بين (التتار) وجلال الدين، ومعركة جلال الدين مع جيش بغداد، وسقوط بغداد وقتل الخليفة، ووصف القيم المتداولة بين

الناس في تلك الفترة الزمنية من مناظرات، ومؤامرات في القصور وفي خلافة واختلاف المسلمين و تشتتهم وتفرقهم وقتالهم فيما بينهم والأوصاف الأخرى.

ظاهرة الحق والباطل في الرواية:

يبين الروائي نسيم حجازي ظاهرة الحق والباطل بين الحضارة الروحية والحضارة المادية كما يذكر الروائي يوسف بن ظهير الذي يواجهه صراعاً نفسياً بعد ما يقرأ خطاب زوجته ويردد كلماته: "سيد! وصل خطابك بعد انتظار طويل. لو كنت معك وأراك مرفرفاً راية الإسلام على يروشلم إنني مريضة قليلاً ولكن لا تتفكر إني لأشفى لما أسمع خبر فتح يروشيلم، نعم أريد أن تكون أنت أول من يبشرني بفتح يروشيلم. أوف بعهدك إنني أدعو ليلاً ونهاراً أن تكون أنت السعيد برفع راية الاسلام على يروشيلم. طاهر! سعيد وزوجة محسن تراعيني وليس بي أي ضر".[24]

ويعرف يوسف بن ظهير من الخطاب أن زوجته مريضة وكان بين أمرين، أمر قد تعهد به هو رفع راية الإسلام على يروشيلم و أمر ثان هو مراعاة زوجته وهو يمرمن هذا الصراع النفسي إلى أن يقول في الأخير: "لعلى أجد فرصة أخرى لعيادة المريضة ولكن سعادة المساهمة في فتح يروشيلم لعلى لم أجدها بعد ذلك".([25])

وصف حب الجهاد في الرواية:

يصف الروائي نسيم حجازي حب الجهاد بين شخصيات الرواية خاصة بطل الرواية طاهر، هو يقضي أشد لمحات في حب الجهاد وهوفي السجن ببلاد خوارزم شاه وهو يردد تلك الكلمات:

"يا الله ! هل لا أستطيع أن أعمل لدينك ؟ وقد تعلمت اللعب مع السيوف والنبال ناوياً الجهاد، فهل لم تقدر لي إلا هذا الموت المكروه؟ وما أديت حق سيف صلاح الدين الأيوبي: اللهم إنني لأعرف إنه لا يبعد عنك نسخ أقضية الناس".[26]

وصف الانفاق في سبيل الله:

يصف نسيم حجازى وصف الانفاق في سبيل الله في الرواية. مثلاً: يقضي طاهر حياته المثالية وهو يضحى حبه وأمنيته على أهدافه السامية والنبيلة وينفق أمواله في سبيل الدفاع عن بلاد المسلمين ويخوض في المعارك لإعلاء كلمة الحق ورفع راية الإسلام.

وصف الشجاعة والبطولة:

والوصف الذي يصف الروائي في شخصية طاهر هو كانت بطولته وشجاعته وجرأته على العمل وعدم الخوف من أي خطر. وميزته هذه لم يعترف بها أحمد بن حسن فقط بل نلاحظ هذا الاعتراف في عدة أماكن:

1- في ميدان المقابلة لما يغلب على قاسم وأستاذه (لوكس، Luxe) فيهنئه الخليفة و ولي العهد ورئيس الوزراء والأمراء والسفراء وغيرهم.
2- لما أراد أبو إسحاق أن يحمل على طاهر بعد ما اكتشف عن مؤامرته، فكان قد قبض على الخنجر، ولكن طاهر لم يمهله إلا ودافع عن نفسه، وأجبره على الخضوع أمامه.
3- في معركة قوقند مع تيمور ملك وقتاله مع (التتر) خلال الطريق.
4- قتله (التتار) في بيت ثريا وسلبه منهم الجواد والمال.
5- بطولاته في معاركه العديدة مع جلال الدين.
6- حنكة الحربية في الدفاع عن صفية و مقابلته مع عبدالملك.
7- ومقابلته مع قشمور قائد الجيش البغدادي وغير ذلك من المواقف والأحداث التي هي لب الرواية.

وعادة يكون الجنود غير عارفين عالم القلم والقرطاس، ولكن شخصية طاهر تمزج بين هذين الوصفين اللذين يعطيان للشخصية مكانة متوسطة، وهذا الاعتدال في طبيعته يشير إليه ذلك الكاتب "إن زيداً لما تعب من الدرع فأراد أن يدفنه وكان قد حفرله قبراً، ولكن طاهر أرضاه على أن يحمله معه ولا

يضيعه". (27)

وصف الاعتماد النفسي في البطل:

يصف الروائي التوازن والاعتدال في شخصية طاهر بحيث يملك اعتماداً وجرأة حتى استطاع أن يقوم أمام الجبال والصخور الشديدة، ويسد السيول الهائلة. ونرى مشاهد كثيرة لهذا الاعتماد في كثير من الأماكن، وخير مثال لذلك هو ما قال قبل مقابلته مع قاسم لما سمع جملة مستهزئة من (لوكس، Luxe) (أستاذ قاسم) فيعرف من خلال كلامه الاعتماد:

"بعد ما نظر لمحة إلى عبدالعزيز، فاتجه طاهر إلى (لوكس، Luxe) وقال: اطمئن، إن الناظرين لايسأمون من المنظر، ولعلك أيضاً لاتسأم، وما لم تشته أن تنتهي اللعبة لا أنهيها". (28)

وهذا الموقف الاعتمادي نراه في أماكن عديدة ومنها: ما قال طاهر في جواب الحاجب لما سأله قبل إعدامه عن آخر أمنيته:

"قد أجبت على سؤالك من قبل، وفي مثل هذه المواقف لا يتوقع عباد الله من الناس شيئاً، وما كنت أريد أن أساله فقد سألت الله، وأدعيتي إن قبلت عنده فلا أحتاج أن أبسط ردائي امام أي أحد من الناس، وإن لم تستجب دعوتي عنده فلا تستطيع أن تعمل لي شيئاً". (29)

أسلوب وصف الخطاب في الرواية:

يذكر الروائي وصف الخطاب على ترغيب الجهاد. والرواية مليئة بهذه الخطابات مثلاً خطابات طاهر وثريا وعبدالملك وجلال الدين وغير ذلك ومن أمثلتها:

"اسمعوا أقوالي و وعوا، وأبلغوا رسالتي إلى كل شخص الذي يفكر ولو قليلاً في مستقبل القوم، إن السيل (التتري) ليس بسيل عادي وأرى الدولة الخوارزمية هي الوحيدة سداً أخيراً أمام هذا السيل العارم. ولو أن هذا السد تهدم، فلا تظنوا أن هذا السيل سيقف هناك، بل أرى أمواجها تزلزل القصور العالية في

بغداد. ولو أننا تغافلنا قليلاً لمحونا أنفسنا عن صفحة التاريخ".[30]

ومثلاً آخر:

"صديقي! ليس هذا المكان للاستهزاء ولكنني أمدح بساطتك وجرأتك، لكن بشرط لو كانت في ميدان المعركة، وإنني ما جئت هنا لتمدحوا خطابي، ولست خطيباً ولا قاصاً وليس عندي ما يريحكم أنني فقط مندوب لأبناء الإسلام الذين رأيت (التتار) يبنون من رؤوسهم المنارات، وإنني مندوب لتلك الفتيات اللآتي رأيت جثث محافظيها تتلطخ في الأرض والدم...."[31]

أسلوب وصف المناظرات في الرواية:

تناول الروائي حقبة من تاريخ بغداد التي هي مليئة بالمناظرات، وكل خطيب كان يريد أن يظهر براعته وهو يعلو على المنبر خطيباً. مثلاً:

وخلال الكلام يقوم أحد المناظرين المعروفين ويصيح إنني أجرؤ على أن أسألك من أي فرقة أنت ؟! أشار له طاهر بالجلوس وقال: إنني لمسلم.

من أي أقسام المسلمين سأل الرجل مرة ثانية؟ قال طاهر: إنكم تعدون أقسام المسلمين منذ ثلاثة قرون ولكنكم لم تصلوا إن من هو على الحق ومن هو على الباطل ومن هو الأصلي ومن هو غير الأصلي...."[32]

عنصر التجسس والتشويق:

يوجد عنصر التجسس في الرواية لتشويق القاريء، مثلاً:

إذ أرسل الخليفة طاهر إلى (جنكيز خان) مندوباً للخليفة ليحذره عن الهجوم على خوارزم شاه، فذهب ومعه ثلاثة من خدام رئيس الوزراء، الذين أطاعوه طول الطريق، ويصل طاهر عند (جنكيز خان) ويعطيه رسالة الخليفة، فرأه لا يعبأ بها كثيراً، وذلك لأن نائب وزير الخارجية كان قد أرسل خطاباً آخر مع رفقائه أخبر فيه بأنه يجب على (جنكيز خان) أن يهاجم على خوارزم شاه فوراً، فإن الخليفة لا يتدخل في القضية. ولم يعرف طاهر عن ذلك إلا بعد ما اكتشف عليه المؤامرة، إذ رأى أمير المنطقة أحد رفقائه وهو يبيع جواهر في السوق، فاخبر

طاهر، فقام بالتفتيش واكتشف في نهاية المطاف أنه كان قد حصل ذلك وأصدقاؤه مثله من (جنكيز خان) على إيصال الخطاب المكتوب على رؤوسهم، ولما ظهر ذلك الأمر على طاهر فبدأ رئيس هذه الرفقة يصيح بأعلى صوته فبدأ الشك يدب في طاهر مثلهم، فحكم في الأخير أن يقتل رفقاء طاهر ويرسل طاهر إلى تيمور ملك حاكم قوقند، فقضى طاهر أياماً في السجن، إلى أن حكم له بالإعدام بأمر من خوارزم شاه، ولكن قدر الله له النجاة أنه لما نصب له الصليب حملت (التتار) على المنطقة فسرح تيمور ملك عن طاهر.(33)

وفي مكان آخر يكتب الروائي إذ حاول مهلب بن داود أن يقتل طاهر بالسم ولكن قدر الله أن اكل طعامه وحيد الدين، ومات في مكانه، ونجى طاهر آخر الأمر وكان الحراس قد رموه في البحر مكبلاً في الحجر، ولكنه استطاع على السباحة. ووافق أنه لما خرج من البحر فيلقي صفية التي كانت قد جاءت إلى شاطئى البحر في الليل فساعدته على الخروج من البحر.(34)

وصف تناسب اللغة مع الشخصية في الرواية:

إن الكاتب نسيم حجازي وفق في مطابقة اللغة مع الشخصيات والمواقف وهذا عنصر مهم في العمل الروائي. نرى أن اللغة تطابق مع الشخصيات والمواقف في كل من السرد والحوار. هذا هو الشيخ أحمد بن حسن يتكلم عن علمه الواسع وذاك زيد خادم طاهر لا يتكلم إلا حسب فطنته وبساطته، فلننظر إلى ذلك:

"قال أحمد بن حسن: يا زيد إذا كنت تريد الذهاب مع طاهر فهلا أخبرتني بذلك؟! أجاب زيد ببساطة: في الحقيقة أن الكبار يرونني أحمق، وكنت أخاف منك أن لا تظنني كذلك وأن لا تحب خروجي معه.

فهل أنت مستعد الآن؟!

إنني مستعد منذ عشرين عاماً للذهاب إلى بغداد، وكل من يذهب من المدينة المنورة إليها التمس إليه أن يرافقني معه، ولكنه يجيبني إنك لم تولد إلا لرعي

الإبل، وماذا تفعل في بغداد.

أجاب أحمد بن حسن: ولكنني أطمئنك الآن أنني أرى ضرورتك في بغداد.

انظروا! لا تستهزنوا بي، إنني فقير ولكن بداخلي قلب أحس به،لو لم ترد أن ترسلني مع طاهر فقل لي صراحة: إنني لا أستطيع أن أرافقه.

قال طاهر: إن قريته في طريقي، فلا حاجة له أن يأتيني هنا.

قال زيد: كنت أتمنى كذلك، يحب أهل قريتي أن يروه، لأنني أخبرتهم أن السلطان صلاح الدين الأيوبي أعطى اباه جواده وسيفه... وهناك شيء ثان هو أنه ليس احد يتقين أنني سأذهب إلى بغداد، كلهم يقولون إنني سأرجع بعد ما أقضى أياماً هنا و هناك، ولو أن طاهر مر من هناك فاستطعت أن أكبتهم". (35)

وصف قصر رئيس الوزراء في الرواية:

كانت لبنات الحجر الرخام موضوعة كالجسر على جدولين جاريين على طرفين من الشارع، فوقف الحاجب بعد عبور الجدول بسرعة، فمشى طاهر على إثره بعد ما فكر قليلاً. (36)

في الرواية وصف بيت ثريا الذي دمره (التتار):

كان أمام طاهر بيت كبير، وكان طاهر قد سلب منه القوة الإرادية التي وصل بسببها إلى هذا البيت، وكانت أكبر أمنيته أن ينام أمام النار الملتهب، وكانت بوابة البيت مفتوحة، ولكن لم يكن فيه النور". (37)

أسلوب المناجاة والدعاء في الرواية:

وكذلك نجد المطابقة الكاملة بين اللغة والمواقف، هذا هو موقف الحماسة فيتكلم فيه البطل كلاماً فيه الحماسة، وذاك موقف الاضطهاد فيجري الكلمات حسب مقتضى الحال لما يرى طاهر نفسه محصوراً مسجوناً، فيتكلم كلاماً فيه الرقة والتماس من الله عزوجل، ويناجي ربه بهذا الدعاء.

"رأى طاهر إلى السماء المغموم في السحاب وردد ذلك الدعا الذي ردده في الليل مراراً، "يا الله هل لا أعمل لدينك؟! وإني تعلمت اللعب مع السيوف والنبال بنية الجهاد، فهل لم تقدر لي إلا هذا الموت المكروه، وما أديت حق سيف صلاح الدين الأيوبي اللهم لا يبعد عليك نسخ أقضية الناس الباطلة".(38)

هذه هي اللغة التي فيها مناجاة ودعاء والتماس وألم شديد.

وصف الاجتناب من لذات الدنيا في الرواية:

نجد أحسن أسلوب في الرواية مثلاً: "كان طاهر في مرحلة من حياته، إذا يحتاج الإنسان إلى رفقة أحد، وفي مرحلة إذ يكون إرجاع تبسم أحد الفتيات أكبر مهمة عنده من كل شيء ولكنه كان من هؤلاء الذين يؤثرون دس الأشواك على مس الورود، ويتلذذون بذلك، وكان من هؤلاء الذين يحسون الطمأنينة في ضربات السيوف بدلاً من ضربات الأوتار، وكان من هؤلاء الذين يرون من السعادة الموت للآخرين بدلاً من الحياة لأنفسهم، وكان من هؤلاء الذين يروون آلاف الأشجار بدمائهم بدلاً من أن يجعلوا قرة أعينهم بوردة واحدة، ولما فكر طاهر في آلاف بنات خوارزم شاه مثل ثريا اللاتي تعانين من حالة المسكنة والحزن فأحس في جسده رعشة وسمع في حينه صيحات آلاف الأمهات والأخوات اللاتي تقولين ناظرات إلى السماء بأعين مفتوحة: أين حفظة عصتمنا؟ ماذا جرى بأبنائنا وإخواننا الغيورين؟"(39)

وصف نهضة الإسلام و(التتار) في الرواية:

فالكاتب نسيم حجازي يصف مرة نهضة الإسلام بالعدل والإنسانية ونهضة (التتار) بالظلم والوحشية:

"قام ساكني صحراء العرب بعد تحطيم لات وهبل، وانتشروا في العالم راحمين، وقطع حديد كل حديد، وغلبت حضارتهم وخلقهم على كل الحضارات والخلق، وأقلعوا جذور شجرة الفساد و رووا أشجار الصلح والأمن بدمائهم في

بستان آدم، وكانت ظلمة الكفر تتقلص مثل ظل نصف النهار وكانت قصور قيصر وكسرى قد تقصفت، وكانت راية غزاة الإسلام ترفرف على قم جبال البرز في جانب، وفي الجانب الثاني على صحراء أفريقية الحارة، وكانت جوادهم تشرب ماء بحار الهند في الشرق، وما ء بحار الأندلس في الغرب في آن واحد. ويتساءل أحد المؤرخين متحيراً بعد مرور ثلاثة عشر قرناً: هل هذا كان بسبب سرعة جواد العرب، أم أن الطبيعة علمت الأرض كيف تتلقص أمامهم، هذه كانت نهضة، نهضة مضيئة، وقد أعطت الطبيعة ذرات رماد العرب ضوء النجوم، ثم نثرها في اطراف الدنيا المظلمة".(40)

هذا هو وصف النهضة الإسلامية ووصف شجاعة غزاة الإسلام وبعده مباشرة يصف الروائي ما قام به (جنكيز خان) من ظلم وفساد في الأرض ويقول:

"ولكن بعد مرور ستة قرون فقط جاءت نهضة أخرى، نهضة مظلمة، ولعل الظلمة التي عاقبها الإسلام عدة قرون كانت قد آوت في صحراء (غوبي)، ولعل النار التي أطفئت بماء العرب كانت تشتعل تحت الرماد البارد في صحراء غربي، وانتظرت مدة ستة قرون نوم محافظي الإسلام، والحقيقة أن محافظي الإسلام كانوا في السنة منذ مدة، ولكن لم تشتعل نار الكفر قروناً؛ لأن قصص مجاهدي القرون الأولى كانت تعمل رشفات الماء، وكان أعداء الإسلام يرون قصور دولة العباسين الخالية غير قابلة للفتح".(41)

خلاصة البحث

لخصت من هذه الدراسة بأن نسيم حجازي يعد من كتاب الرواية التاريخية البارزين في اللغة الأردية، ويحتل مكانة مرموقة بين أدباء الأردية المعاصرين، ولم تأت هذه المكانة من فراغ، ولكنها نتاج مجموعة كبيرة من الأعمال الأدبية المتنوعة.

يتجول نسيم حجازي بقلمه في ربوع العالم الإسلامي ويكتب روايته (الصخرة الأخيرة) والتي صور فيها السقوط الدامي لعاصمة الخلافة الإسلامية

بغداد عام (656هـ) كما استطاع الروائي في هذه الرواية أن يوضح حقيقية مهمة؛ وهي أن العظمة الحقيقية تكمن في التمسك بالأخلاق والقيم وليس في الثراء والسلطة.

لقد صور نسيم حجازي في هذه الرواية وحشية الهجمات التتارية علي العراق وإيران. وهي تتحدث عن ضياع دولة الإسلام مع نهاية عهد الدولة العباسية علي يد التتار بقيادة هولاكو، وسقوط بغداد، وإلقاء مكتبتها في نهر دجلة، وقتل الآف المسلمين بوحشية،وألقى باللوم على خليفة المسلمين الغافل عما حوله، العابث بمقدارت امته، المحب لحياة اللهو والمجون، ولقد ذكر نسيم حجازي الأحداث التارخية تدريجياً حتى وصل إلى القمة، وأمسك بخيوط الأحداث كلها في يده، وسيطر عليها رغم أنها متدفقة كالسيل أمام القاري، وذلك عندما تحدث عن عمليات التخريب والدمار الواسعة التي عمت أرجاء الدولة العتاسية.

يقول "سيد وقار عظيم" ملقيا الضوء على هذه الرواية": أما من حيث الأسلوب والناحية الفنية ففي رواية "آخرى چٹان" امتزج بين جمال الأدب وأسلوب الخطابة؛ فأحداث الرواية تنمو شيئا فشيئا، وترتيب الألفاظ والجمل والفقرات المتوازن يأسرالقاري. كما أن للرواية في بعض اجزائها سيلان الألفاظ الذي ينساب معه القارئ. ورغم ان إحساس التلقين يموج داخل الرواية إلا أن الجمال الأدبي المتوازن يمسك بزمام الأمور.

لقد أستطاع نسيم حجازي من خلال هذه الرواية أن يعرض يوَضوح الصراع بين الحق والباطل، النصر والهزيمة، شجاعة المجاهدين وخسة السلاطين، وأن يقدم العظة الحقيقة ويظهر العبرة من قانون الطبيعة؛ فأوضح أن العظمة الحقيقية لأي أمة تكمن في تمسكها بالأخلاق والقيم وليس في الثراء والسلطة، كما ألقىالضوء في هذه الرواية على جغرافية آسيا وتاريخها وثقافتها.

الهوامش والمصادر

1- آخرى چٹان (الصخرة الأخيرة): نسيم حجازي، ص: 3،4.

2- البداية والنهاية: ابن كثير: 98/13.

3- آخرى چٹان(الصخرة الأخيرة): نسيم حجازي، ص: 133، انظر وثائق الحروب الصليبية المغولي للعالم الإسلامي:

محمود حمادة، ص: 66.

4- آخرى چٹان(الصخرة الأخيرة): نسيم حجازى، ص: 315.

5- البداية والنهاية: ابن كثير: 97/13.

6- المصدر نفسه، ص: 32.

7- تاريخ الإسلام: معين الدين شاه ندوي، ص: 372.

8- المصدر نفسه، ص: 512.

9- آخرى چٹان(الصخرة الأخيرة): نسيم حجازى، ص: 388.

10- القصة في الحديث النبوى الشريف: دكتور محمد بن حسن الزير، ص: 312، انظر،

The structur of the novel: Edwin muir ' p: 85, Nature of Historical Novel: The Art and Practice of Historical Fiction: NieldJonthan 'p: 75' shephered' p: 88.

11- آخرى چٹان(الصخرة الأخيرة): نسيم حجازي، ص: 55.

12- المصدر نفسه، ص: 336 – 337.

13- المصدر نفسه،ص: 83، 84.

14- المصدر نفسه، ص: 100.

15- سورة البقرة، الآية: 156.

16- سورة المائدة، الآية: 45.

17- صحيح البخاري: 134/7، كتاب الأدب.

18- الأمثال الشعبية المصرية: احمد تيمور باشا، ص: 7.

19- المصدر نفسه، ص: 15.

20- آخرى چٹان(الصخرة الأخيرة): نسيم حجازي، ص: 289.

21- المصدر نفسه، ص: 14، 65، 67.

22- المصدر نفسه، ص: 193.

23- المصدر نفسه، ص: 137.

24- المصدر نفسه، ص: 25.

25- المصدر نفسه، ص: 28.

26- المصدر نفسه، ص: 193.

27- المصدر نفسه، ص: 40.

28- المصدر نفسه، ص: 82.

29- المصدر نفسه، ص: 192.

30- المصدر نفسه، ص: 24.

31- المصدر نفسه، ص: 280.

32- المصدر نفسه، ص: 282.

33- المصدر نفسه، ص: 173، 194.

34- المصدر نفسه، ص: 347، 354.

35- المصدر نفسه، ص: 36.

36- المصدر نفسه، ص: 98.

37- المصدر نفسه، ص: 98.

38- المصدر نفسه، ص: 193.

39- آخرى چڤان(الصخرة الأخيرة): نسيم حجازي، ص 227.

40- المصدر نفسه، ص: 9.

41- المصدر نفسه، ص: 10.

*_*_*